الذاكرة الجمعيّة وأثرها في أصالة اللغة العربية

Collective Memory And Its Effect on Arabic Language

أ.م.د. محمد بشير حسن أ.د. إياد عبد الودود عثمان الحمداني
قسم اللغة العربية /كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ديالى

المقدمة:

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإنَّ البحث في اللغة وذاكرتها الجمعيّة ميدانٌ وعرٌ تقع فيه اختلافات بسبب حصول التطوّر والاتسّاع، وظهور الاشتقاق وغير ذلك؛ إذ تتطوّر اللغة بطريقة معقّدة يصعب رصدها، بيد أنَّ الخصوصية التي تتمتع بها اللغة العربية حفّزت الباحثين لتأمّل الأصالة التي تتمتع بها هذه اللغة بسبب عمرها المقروء، وتأثير البيئة والدين والايديولوجيات وغير ذلك ممّا أدّى إلى إظهار نوع من (التضمين اللغوي) ذي طابع كنائي يرتبط بالخزين اللاوعي للفرد الناطق باللغة العربية.

شرع البحث بتمهيد وضح فيه مفهوم (الذاكرة الجمعيّة)، وبعض مقولات علماء اللغة في ذلك، ثُمَّ اكتفى بعرضٍ يحسبُهُ وافيًا لعينات كشف فيها عن المعاني الجمعيّة التي تُظهرها بعض الألفاظ ويعتقد أنّها تعطي تصوّرًا عن الموضوع، من هذه الألفاظ: (النسيان، والنور والظلام، واليد، والماء).

وأحال البحث في ثنيّات تطبيقه على عدد من الأمثلة التي تُظهر (الأصالة) من خلال عرض جانب من المنجز الأسلوبي للغة العربية وذاكرتها الجمعيّة.

إنَّ هذا البحث نواة لتأصيل معنى (الذاكرة الجمعيّة) على أساس أنَّ اكتساب اللغة وتعلمها يرتبط بهذه الذاكرة، فضلا عن علاقتها المباشرة بعوالم التصوير واللغة الشعرية.

وهو محاولة يُتمنى أن تكون قد حقَّقتْ قدرًا من الفائدة، ووضعت نواةً لدراسات أخرى تُطَوِّرُ الفكرة التي قام عليها.

والله الموفق

مدخـــل

في مفهوم الذاكرة الجمعيّة

يبدو أنَّ النظر في اثنينية اللاشعور الشخصي Personal Unconscious واللاشعور الجمعي Collective Unconscious ذو توجّه فلسفي فيه طابع إشكالي بسبب تداخله مع مفاهيم ورؤى ترتبط بالمجتمع والنّفس وتأمل الكون؛ وإنَّ الارتباط بالمجتمع يُمكن أن يؤثر في السلوك الجماعي والتقاليد وما إلى ذلك، وبحثُنا ـ هنا ـ يُحاول تأمُّل مفهوم (الذاكرة الجمعيّة)

التي ترتبط ـ ضمنًا ـ باللاشعور الجماعي الذي اقترن اصطلاحًا بنظرية كارل يونج[١](Carl Gustav Jung)، الذي يرى أنَّ الخبرات تُخْتَزن بطريقة تراكمية عبر الأجيال، وهذه الخبرات تُؤثر في اللاشعور الشخصي أيضًا[٢].

ولسنا بصدد التفصيل في نظرية يونج؛ ولكن يبدو أنَّ هذا المفهوم ذو بُعْدٍ أوسع من ذلك يُمكن من خلاله القول إنَّ هناك خزينًا لا واعيًا يتسلل إلى ميادين أُخرى منها اللغة، ويؤثر في طريقة اكتسابها.

وقد رصد الدّرس اللغوي ـ مُبكرًا ـ مظاهر من الارتباط الجمعي، يُمكن تلخيصها في الآتي:

١. يُعدُّ الفيلسوف هوبز أوّل من فكّر في الجماعة بوصفها شخصية مستقلة عن الأفراد وذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتابعه في ذلك لوك وروسو في القرن الثامن عشر فانتعشت فكرة الإرادة الجمعيّة[٣].

٢. جَنح فريق من علماء اللغة إلى الاهتمام بالظروف النّفسيّة للجماعة وقد شاع لديهم منذ عهد جريم هذا الاتجاه؛ بل إنَّ جريم نفسه وجد أنَّ التغيرات الصوتية في اللغة الألمانية إنَّما هي انعكاس للنزعة التقدُّمية التي تميزت بها الشخصية الألمانية، فهم يميلون إلى الحرية ولا يميلون إلى الاستقرار على وضع ثابت لمدّة طويلة[٤].

٣. أشار الدكتور عبد الرحمن أيوب إلى أنَّ الأستاذ أوتويسبرسن قد ذكر ما يُعرف باللغة المشتركة، وعرَّفها بأنَّها ((اللغة التي تخلصت من الصفات اللغوية الخاصّة بأي إقليم بعينه))[٥].

ويمكن القول إنَّ ما تقدّم من نقاط يضع أساسًا لفكرة (الذاكرة الجمعيّة)، ويبدو أنَّ الاهتمام بها لم يكن بالمستوى المطلوب على الرغم من ارتباطها بالفطرة وتدخلها في أصالة اللغة، وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن أيوب أنَّ الاهتمام بدراسة العقل الجمعي والإرادة الجمعيّة لم تنلْ اهتمامًا من اللغويين[٦].

ويبدو أنَّ انشغال الدَّرس اللغوي المعاصر بأفكار سوسير التي تدرس اللغة بذاتها وفي حدّ ذاتها حين تنظر إلى اللغة بوصفها أنساقًا لا علاقة لها بالعالم الذي تُعبر عنه، واعتباطية العلاقة بين الدّال والمدلول قد غطّتْ على أهمية هذه الأفكار.

أخيرًا نقول: إنَّ ذاكرة اللغة خزين ثقافي يسْتدعيه اللاشعور بطريقة فطرية تهيئ تصورًا خاصّا بتلك اللغة ذا مستويات متباينة، فاللغة العربية على سبيل المثال تمتلك ذاكرة قويّة جدًا يمتدُّ عُمْرُها إلى أكثر من ١٦٠٠عام، وقد أشار الجاحظ (ت٢٥٥هـ)إلى أنَّ عمر الشعر ـ في منظوره وقتذاك ـ لا يتجاوز عمره المقروء مائتي عام قبل الإسلام، حين قال :

---

(١) يونغ، كارل غوستاف(١٨٧٥ـ١٩٦١م) Carl Gustav Jung عالم سويسري يُعدُّ أحد أكبر علماء النّفس في العصر الحديث، عُرِف ببحوثه العميقة في حقل اللاوعي والميثولوجيا كان أوّل من طلع على النّاس بمفهوم الشخصيّة المُنبسطة والشخصيّة المُنطوية وطوّره، موسوعة المورد العربية:١٣٣٦/٢.

(٢) ينظر: علم النّفس التحليلي(يونغ): ٢٣٨.

(٣) ينظر: اللغة والتطور (د.عبد الرحمن أيوب): ٥٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨.

(٥) محاضرات في اللغة:٣٨.

(٦) ينظر: اللغة والتطور:٥٨.

((أمّا الشعر فحديث الميلاد صغير السن[...] فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام))[١]، أما الألمانية والفرنسية والانكليزية والايطالية فذاكرتها قصيرة لا يتجاوز عمرها المقروء والمفهوم ٦٠٠عام، بسبب البيئة الثقافية والفكرية التي تنشأ فيها اللغة وتتطور.

المعاني الجمعيّة:

يبدو واضحًا أنَّ المعاني هي عنصر الاستقطاب الأهم لتلقي اللغة، وما المفردات إلا وعاء يحاول أن يحتوي هذه المعاني، وبسبب ذلك كانت الفطرة الإنسانية تبحث فيما تحمله المعاني قبل المفردات نفسها؛ بل إنَّها تستعين لتوصيل تلك المعاني بوسائل أُخرى مثل العلامة والإشارة والرسم والحركة وغير ذلك.

وقد تأثرت كلّ تلك الوسائل بالخزين الجمعي للأفراد الناطقين باللغة التي يستعينون بها لتوصيل المعاني.

ويبدو أنَّ أنماط اكتساب اللغة فطرية تنشأ مع الإنسان، بعضها يشترك فيه جميع الأفراد الناطقين باللغة، وبعضها يرتبط بخصوصية اللغة نفسها وعمقها الحضاري والابستمولوجي.

وكانت اللغة العربية تستمدّ معانيها الأصيلة من العمق المشار إليه الذي شكّل ما عرفناه بـ(ذاكرة اللغة)، بطريقة تجعل من عملية اكتساب هذه اللغة وتعلّمها تختلف عن اللغات الأخرى في درجة تأثرها، وبمعنى آخر يمكن الاستدلال على أصالة هذه اللغة بوضع اليد على عدد من العينات، وهي بمنزلة انموذج لإيضاح ما نرجوه:

النسيان:

يرتبط فهم المعاني التي تنقلها اللغة بوسطها الذي نشأت فيه وانتعشت عنده المعاني؛ إذ تتأثر عملية الاكتساب والتعلّم والتأثير بعناصر البيئة البدوية في اللغة العربية التي جعلت من لفظة النسيان على سبيل المثال ذات بعد آخر عن البعد الذي تحمله هذه اللفظة في اللغات الأخرى.

إنَّ النسيان في اللغة العربية يرتبط بترك الشيء على ذهول وغفلة وذلك خلاف الذكر[٢]، قال الراغب الأصفهاني(توفى بحدود٤٢٥هـ) ((النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع أما لضعف قلبه وأما عن غفلة، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره))[٣].

وكل هذه المعاني ترتبط بخزين الصحراء اللغوي؛ إذ إنَّ النسيان الذي تُظهره اللغة الانكليزية (Forgetting)

(١) الحيوان:١/ ٧٤.

(٢) ينظر: كتاب المصباح المنير: (نسو): ٨٣٠

(٣) مفردات ألفاظ القرآن:٨٠٣.

ـ على سبيل المثال ـ لا يحقق التأثير والدلالة المقصودة في اللغة العربية، فلفظ النسيان مرتبط بالترك في الصحراء، بمعناه المرعب، وبسبب ذلك جاء التعبير القرآني في سياق إهمال الله للكافرين بطريقة أكثر رُعبًا؛ قال تعالى: **(وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)** (الجاثية٣٤)

وقال أيضا : **(قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)** (طه: ١٢٦)

إنَّ هذا النسيان صحراوي؛ إذ إنَّ الذي يُنسى في الصحراء ليس كالذي يُنسى في بيئة أخرى، فالعطش والخوف من الوحوش قرين بهذه اللفظة التي اكتسبت الرعب من ذاكرة اللغة.

وما زالت هذه اللفظة بخزينها الصحراوي فاعلة، وتوظّف بطرائق مختلفة للتعبير عن الترك المقترن بالرعب، وفي الآيتين السابقتين تكرار للفظة النسيان على طريق المشاكلة، وفي السياقين ورد لفظ النسيان على هذا السبيل، فقد أُسند فعل النسيان إلى الله تعالى أي إنّه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[١]، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ العقوبة من جنس العمل، ولتحقيق عدالة الله جاء اللفظ بصورة واحدة فالنسيان (العقوبة) جاء بسبب النسيان (الذنب).

ولسنا بصدد التفصيل في تأويل سياق المشاكلة هذا، لكننا نقول إنَّ اختيار لفظة النسيان في سياق المشاكلة في القرآن ذو بعد أسلوبي يرتبط بالذاكرة الجمعيّة التي أشرنا إليها.

وليس من المفاجئ أن يظهر في المنجز الإبداعي المعاصر مجموعات لمرويات شعرية عنوانها[٢](نسيان)، فقد كان معنى النسيان في العربية محور هذه المرويات التي كتبتها الروائية والشاعرة الجزائرية أحلام مستغانمي، وظفت فيها لفظة النسيان توظيفًا أسلوبيًا أصيلا حتى أنَّ معظم قصائد المجموعة غُنيت بألحان جاهدة وهبي، ومنها[٣]:

١. أبدًا لن تنسى
٢. أكبر الخيانات النسيان
٣. أيّها النسيان هبني قبلتك

ويبدو أنَّ الخزين اللاوعي، وما تحمله مفردة النسيان من معطيات كانت سببًا في فاعلية هذه المجموعة التي أفادت من الوعي الجمعي للمتلقي العربي.

(١) ينظر تعريف المشاكلة في معجم المصطلحات البلاغية وتطورها:٣/ ٢٥٧. ٢٥٨.

(٢) عن دار الآداب للطباعة والنشر، المجموعة الشعرية: نسيان com، ط١ ، ٢٠٠٩م.

(٣) ينظر: المصدر نفسه:٣٣٦.

النور والظلام:

ترتبط هاتان اللفظتان بقيمتي الخير ومتعلقاته من جهة والشر ومتعلقاته من جهة أخرى؛ فقد ورد في التعبير القرآني تشبيه نور الله بالمشكاة ((فبعد أن أصبح (الله) مصدرًا للنور، ارتبط نور الله بعلاقة مشابهة معلنة مع المشكاة!))[١]

يقول تعالى (**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) (النور:٣٥)

ويُفهم من تعليق الرازي[٢](ت٦٠٦هـ) على هذا المشهد أنَّ الغالب في جزئياته يقوم على نقلة من المستوى الحسّي الذي يُحيل عليه النور إلى المستوى الدلالي المرتبط بهداية الله التي اتضحت وصارت بمنزلة المشكاة، وهذا يرتبط بالدلالة الجمعية التي تشكّلت في أذهان المتلقين، فالمشكاة ترتبط ذهنيًا بالمتلقي لملازمتها لهم في حياتهم الخاصّة، واقترانها بالضوء الذي يرتبط بقيم الخير ومتعلقاته التي أشرنا إليها.

ويُقابل ذلك الظلام بما يهيئه من قيم الشرِّ ومتعلقاته، يقول تعالى : (**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) (البقرة:٢٥٧).

قال الواقدي: ((كل شيء في القُرآن من الظلمات والنور فإنه أراد به الكفر والإيمان غير التي في الإنعام، (**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**) فإنَّه أراد به الليل والنهار))[٣]، قال بعض المفسرين: ((يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى آدابها: كالرضا والصدق والتوكل والمعرفة والمحبة))[٤] وقال آخر: ((يخرجهم من ظلمات الوحشة والفرقة إلى نور الوصلة والإلفة))[٥].

وخلاصة القول: إنَّ النور والظلام كثيرًا ما يتلازمان في التصوير القرآني، وقد شكلا خزينًا من المعاني الدالة على قيمتين متضادتين، ووصل الأمر إلى انبهار المؤمنين في الجنة حين يقولون: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) (التحريم:٨).

---

(١) التصوير المجازي:٣٠.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب:٢٣/٢٠٣.

(٣) البحر المحيط: ٢/٢٠٧.

(٤) المصدر نفسه:٢/٢٠٧.

(٥) المصدر نفسه:٢/٢٠٧.

ويقول تعالى : ((**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)) (النور: ٣٥)

وبسبب هذه العناية الأسلوبية القرآنية استقطب اللاوعي الجمعي للغة العربية معنى النور بطريقة خاصّة ارتبطت بالجانب العقدي وتأثر بها الوسط الناطق باللغة بشكل عام؛ إذ إنَّ ظلام الصحراء مخيف، ونورها مُبهج.

ويذكر القرآن الكريم لفظة النور ومتعلقاتها في (١٩٤) آية[١]، في حين تُذكر مادة (ظَلَمَ) ومتعلقاتها في (٣١٤) آية[٢]، ويبدو من الإحالات المعنوية التي يدلنا عليها الظلام إنَّ مفردة (الظلم) بمعناها المرتبط بالعقيدة، هي التي كانت السبب وراء ورودها بعدد أكبر، وأصلها مشتق من الظلام، وقد نقلته إلينا ذاكرة اللغة.

وكان الظلم متضمنًا لمعانٍ كثيرة ترتبط بالظلام وما يحيل عليه من قيم اختُزنت في ذاكرة اللغة، وفي قول النبي (صلّى الله عليه وسلّم) ((الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة))[٣]، تخييل بسبب جناس الاشتقاق الحاصل بين الظلم والظلمات، فالظلم مشتق من الظلام، وقد أورد الدكتور أحمد مطلوب قول الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) هذا في أثناء تعريف الجناس المشتق[٤].

وفي قول زهير بن أبي سُلمى ذكر للظلم بمعنى الطلب في غير موضعه، إذ قال[٥]:

هو الجواد الذي يعطيك نائله عفوًا ويُظلَمُ أحيانًا فيظّلِمُ

(بحر البسيط)

ويبدو أنَّ الرابط واضح بين الظلام والطلب في غير موضعه وما يقابله من حال الكافرين التي عبر عنها القرآن، وقد جاء هذا التطور اللغوي بفضل الذاكرة الجمعيّة للغة.

اليد:

ارتبط ذكر اليد بمعان كثيرة شكّلت جانبًا مهمًا من الذاكرة الجمعية للغة، ويبدو أنَّ السبب الرئيس لذلك ما ظهر في الاستعمال القرآني والتوظيف التصويري المقترن بذلك الاستعمال، زيادة على الدلالات المكتسبة من المنجز

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم(نور): ٧٢٣- ٧٢٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤٣٤- ٤٣٩.

(٣) فتح الباري: ١٤٢/١٧.

(٤) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٤١٨/٢- ٤١٩.

(٥) ديوانه: ١١٥.

الإبداعي وشيوع الاستعمال في البيئة التي ترعرعت فيها هذه المفردة ويمكن الكشف عن أصالة مفردة اليد وفاعليتها الأسلوبية من التفاتة ابن جني (٣٩٢هـ) حين قال: ((أكثر ما تستعمل الأيادي في النعم لا في الأعضاء)) [١].

وهذه الالتفاتة تؤكد أنّها تستعمل خارج حدودها اللغوية، فلفظة اليد تأتي في سياق الإحالة على الكرم، والهيمنة والسلطان، والبيعة، وتستعمل استعمالات أُخرى[٢] في سياق المجاز، فيقال: يدُ السيف ويقصدون مَقْبَضَهُ، ويد الرحى ويقصدون العود الذي يَقبضُ عليه الطاحنُ، ويذكرون اليد ويقصدون بها النعمة والإحسان[٣].

قال النابغة الذبياني[٤]:

فلن أذكر النعمانَ إلا بصالح فإنَّ لـه عندي يُديّاً وأنعُما

(بحر الطويل)

أما الاستعمال القرآني للفظة اليد وقريناتها مثل الكف، فقد ظهرت في سياقات أثارت فضول الفقهاء وذائقة البلاغيين والنُّقاد، يقول تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) (الفتح: ١٠)

وقد علّق الزمخشري(ت٥٣٨هـ) على هذه الآية قائلا: ((لما قال لما يبايعون الله أكده تأكيدا على طريق التخييل فقال: **(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)** يريد أنَّ يدَ رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام)) [٥].

ويقول القرطبي (ت٦٧١هـ): ((قيل يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة))[٦].

ويذكر أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) أَنَّ اليد ترتبط بالنعمة[٧]، ووجد الزمخشري أنَّ ((عضّ اليدين والأنامل وتقليب الكفين، والسقوط في اليد، وأكل البنان، وحرق الأسنان وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة؛ لأنَّها من روافدها، فيذكر الرادفة ويدل بها عن المردوفة فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة))[١].

---

(١) لسان العرب(يدي):١٥/٤١٩.

(٢) للاستزادة ينظر: الجامع لأحكام القرآن:٦/٢٣٨.

(٣) ينظر: لسان العرب(يدي):١٥/٤١٩.

(٤) ديوانه:١٦٢.

(٥) الكشاف:٤/٣٣٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن:١٦/٢٦٧.

(٧) ينظر: البحر المحيط:٨/٧٨.

يقول تعالى في مشهد يصوّر حال الظالم المتفجع وهو بعض على يديه بطريق الكناية:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) (الفرقان: ٢٧)

ويقول تعالى:

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً) (الكهف: ٤٢)

والمشهدان في سورتي الفرقان والكهف كُنّي فيهما باليد للتعبير عن الندم والحسرة بطريقة أفادت من عنصر الحركة والطابع التجسيدي في التصوير، ويعد الدكتور إياد الحمداني[٢] أنَّ مشهد تصوير ندم الظالمين في سورة الفرقان أفاد من الكناية الحركية الهائلة المرتبطة بتصريح لفظي جاء على لسان الظالم النادم على ما فات، وهو مضطرب النّفس((ويبدو أنَّ هناك علاقة بين اليد والذنب على سبيل المجاز المرسل؛ لأنَّ اليد هي التي تفعل الذنب، فالدلالات هنا متشابكة))[٣].

لا يقتصر الأمر عند هذه الحدود، فقد وُظِّفَتْ اليد في مشهد آخر يكنى فيه عن البخل، يقول تعالى: **(وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)** (الإسراء: ٢٩)

ويُحكى أنَّ العرب استعملت اليد على سبيل الكناية في مواضع أخرى، فقيل: ((جعد النامل، ومقبوض الكف، وكزّ الأصابع، ومغلول اليد))[٤]، يقول أبو تمام[٥]:

تعوّد بسط الكفِّ حتى لو انه ثناها لقبضٍ لم تُجِبْهُ أناملُهْ

(بحر الطويل)

ويقول البُحتري مادحًا في أثناء وصفه لبركة المتوكّل مُفيدًا ممّا تتضمنه لفظة اليد من مدلولات مختزنة في الذاكرة الجمعيّة مستعملا إياها في سياق القياس الشعري الخادع وأسلوب المراوغة ذي الطابع التخييلي حين قال[٦]:

كأنّها حين لجّتْ في تدفقها يدُ الخليفةِ لمّا سال واديها

(بحر البسيط)

---

(١) الكشاف:٣/٢٨٠.

(٢) ينظر: التصوير المجازي:١٥٢.

(٣) المصدر نفسه:١٥٢.

(٤) الجامع لأحكام القُرآن:٦/٢٣٨.

(٥) شرح ديوان أبي تمام:٢/١٥.

(٦) ديوانه:٢٤٢٠.

ويقول الشريف الرضي موظفًا الكفّ توظيفًا شعريًا مُستندًا إلى الذاكرة الجمعيّة حين ربط بين الكف والشفتين على سبيل المراوغة والتلطّف[١]

ومُقبِّلٍ كفّي ودَدْتُ بأنّه أومـــــى إلـــــى شـــــفتيّ بالتقبيـــــلِ

(بحر الكامل)

الماء:

شكّل الماء مساحة واسعة في التضمين اللغوي؛ بسبب ارتباطه بأبعاد بيئية ودينية وإيديولوجية، أسهمت فيها هذه المفردة ومرادفاتها في المنجز الأسلوبي للغة الإبداعية.

لقد مثّل الماء ومتعلقاته جزءً واضحًا ومتميزًا من الذاكرة الجمعيّة للغو العربية، يمكن تلخيصهُ في الآتي:

١. يقترن الماء بالحرمان في البيئة الصحراوية ويرتبط بالحياة البدوية .

٢. اقترن ذكر الماء في القُرآن الكريم بانبعاث الحياة وتجددها، فقد قال تعالى: **(أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)** (الأنبياء: ٣٠)

٣. ارتبط ذكر الماء بسلوك العبادة عند المسلمين، مثل الوضوء، وصلاة الاستسقاء، وخصوصية ماء زمزم، وغير ذلك.

كل هذه جعلت من مفردة الماء ذات أصالة عربية لا يمكن تحقّقها في اللغات الأخرى؛ إذ يذكر ابن منظور لفظ الماء ويُحيل على السائل المنوي[٢] لارتباطه بالحياة، وهذا لا يمكن ظهوره في اللغات الأخرى أيضًا، ويبدو أنه يدلُّ على العمق الابستمولوجي للغة العربية.

وظهرت في اللغة العربية لفظة (الغيث) لمطر الخير بسبب هذه الخصوصية، قال تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)** (الشورى: ٢٨)

وفي المعجمية العربية تشكيلة مشتقة من الغيث، فهي بمعنى الإعانة[٣]، ويقترن ذكرها بالغياث، والغوث، والإغاثة[٤]، زيادة على ارتباطها بذكر النبات على سبيل المجاز المرسل بوصفه نتيجة.

ومن الاستعمالات الأسلوبية الفاعلة بتوظيف لفظة الغيث ونقلها من المعنى اللغوي المجرد إلى المعنى السياقي المرتبط بذاكرة اللغة، قول أبي تمام[١]:

---

(١) ديوانه:١٩٣/٢.

(٢) ينظر: لسان العرب(موه):٥٤٣/١٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه(غيث):١٧٥/٢.

(٤) ينظر:المصدر نفسه: (غوث، غيث):١٧٤/٢- ١٧٥.

غيثان فالأنـواء غيث ظاهــرٌ لك وجههُ والصحو غيثٌ مُضمرُ

(بحر الكامل)

فقد عبّر عن بهجته بالغيث بشطر معنى المفرد إلى مستويين الأول يرتبط بالمعنى اللغوي الظاهر، والآخر يرتبط بالمعنى الذهني المستند إلى عوالم البهجة المتحققة بسبب هطول المطر، وتُحقق النقاء وصفاء الجوّ.

وتذكرنا هذه البهجة بقصيدة بدر شاكر السّياب (أنشودة المطر)التي أظهر فيها بهجة الأطفال وهم يكركرون في حدائق الكروم، فضلا عن تصويره للطبيعة الثابتة والمتحركة حين قال[٢]: (وحدتها الإيقاعية مُسْتَفْعِلُن):

وكركـــــر الأطفـــــال فـــــي حـــــدائق الكـــــروم

ودغـــدغت صـــمتَ العصـــافير علـــى الشـــجر

أنشودة المطر

وهذه الخصوصية للماء ومتعلقاته جعلت من مفردات (المزْن، والسحب، والغيم، والديمة) وغيرها، ذات حضور أسلوبي (stylistics) وشعري .

ويرتبط معنى (المزْن) بالإسراع في طلب الحاجة، (والمزْنُ) بالضم يرتبط بالسحاب عامّة، أو السحاب ذي الماء، أو السحابة البيضاء[٣]، قال أوس بن حجر[٤]:

ألم ترَ أنَّ الله أنزل مُزنـــةً وعُفـــرُ الظباء في الكناس تُقَمّـعُ

(بحر الطويل)

---

(١) شرح ديوان أبي تمام:١/٣٣٢.

(٢) ديوانه:١/٤٧٥.

(٣) ينظر: لسان العرب(سحب): ١٣/٤٠٦.

(٤) ديوانه:٥٧.

أما مادة (سحب) فقد ارتبطت بجرِّ الشيء وتحريكه؛ فهي سحابة لأنها تسحب في الهواء، والسحاب قرين الغيم، وقد ذكر الاستعمال القُرآني السحاب مقترنًا بالثقل تعبيرًا عن حمله للماء؛ قال تعالى : **(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)** (الرعد: ١٢) وقال أيضًا: **(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)** (الأعراف: ٥٧)

وقال امرؤ القيس[١]:

تلك السّحابُ إذا الرحمن أرسلها روّى بها من مُحُول الأرض أيباسا

(بحر الطويل)

وقال الأعشى مُشبهًا مشية المرأة[٢]:

كأنَّ مشيتها من بيت جارتها مُرُّ السحابة لا ريثٌ ولا عجلُ

(بحر البسيط)

ويبدو أنَّ عقد المشابهة ـ هنا ـ قد جاء بسبب ما تتضمنه السحابة من خزين ذهني، فالتشبيه قائم على عقد الصلة بين الحسّي والمعنوي، وإذا ما تُرجم إلى لغات أخرى ستتحول الغرابة التصويرية والابتكار المؤثر إلى عوالم مُبهمة بسبب خصوصية اللغة الإبداعية وأصالتها العربية.

أما الديمة فتحيل على المطر الذي ليس فيه رعدٌ ولا برقٌ، وأخذت الدلالة اللغوية تتسع بسبب البيئة، فالديامم هي المفاوز، ويُقال: مفازة ديمومة، أي دائمة البُعد[٣]، ولا يخفي أنَّ هذا المعنى يرتبط بالخزين اللاوعي للغة؛ إذ إنَّ انقطاع المطر هو ما يُقلق الذي يسير في الصحراء ومفازاتها.

قال أبو تمام[٤]:

ديمة سمحة القياد سكوبُ مستغيثٌ بها الثرى المكروبُ

لو سعتْ بُقْعةٌ لإعظام نُعْمَى لسعى نحوها المكانُ الجديبُ

لَذَّ شُؤْبُوبُها وطاب فلو تسـْ ـطيع قامتْ فعانقتها القلوبُ

فهي ماءٌ يجري وماءٌ يليه وعَزالٍ تهمي وأخرى تذوبُ

(بحر الخفيف)

---

(١) ديوانه:٨٣.

(٢) ديوانه:٥٥.

(٣) ينظر: لسان العرب (دمم):٢١٩/١٢.

(٤) شرح ديوان أبي تمام:١٥٧/١.

وأخيرًا نقول:

وجد البحث أنَّ الخزين اللاوعي الذي تتمتع به اللغة العربية ذو خصوصية وتميّز على بقية لغات العالم؛ بسبب العمق الحضاري والابستمولوجي، وعمر اللغة المقروء الذي أشرنا إلى أنَّه يمتد نحو ١٦٠٠عام.

ويبدو واضحًا تأثّر الذاكرة الجمعيّة للغة العربية بلغة القُرآن الكريم ومعانيها، والبيئة الصحراوية التي نشأت فيها تلك اللغة، فأثّر القُرآن في آلية عمل اللغة ومُنجزها الأسلوبي .

ووجد البحث أنَّ المتعلّم يحتاج إلى فهم اللغة وما ورائها، وظلال معانيها التي لا تظهر إلا من خلال المران وفهم المعاني في بيئتها؛ والعينات التي رصدها البحث ما هي إلا نواة لحقيقة علمية أراد البحث الكشف عنها وترسيخها وهي أنَّ لذاكرة اللغة تأثيرًا في اكتسابها وتعلّمها، وهو بذلك يُمهّد الطريق لدراسات أخرى أكثر شمولية وجدّة.

والله نسأل التوفيق والسداد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. البحر المحيط ، أبو حيان (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢. التصوير المجازي أنماطه ودلالاته في مشاهد القيامة في القرآن، د. إياد عبد الودود عثمان الحمداني، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد ـ العراق،٢٠٠٤م.

٣. الجامع لأحكام القُرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: هُشام سمير البُخاري، عالم الكتب، الرياض ـ السعودية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٤. الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ـ مصر [د.ت]

٥. ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: محمد حسين، المطبعة النموذجية، القاهرة ـ مصر.

٦. ديوان امرؤ القيس، ضبط وتصحيح:أ. مصطفى عبد الشافي، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان،١٤٢٥هـ ـ٢٠٠٤م.

٧. ديوان أوس بن حجر، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت، بيروت ـ لبنان١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٨. ديوان البحتري، تعليق: حسن كامل الصيرفي، ط٣، دار المعارف، القاهرة ـ مصر.

٩. ديوان بدر شاكر السّياب، مج١، دار العودة، بيروت لبنان، ١٩٧١م.

١٠. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح: أ. علي حسن فاعوري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١١. ديوان الشريف الرضي، تحقيق: د. محمود مصطفى حلاوي، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ـت لبنان، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٢. ديوان النابغة الذبياني، شرح عباس عبد الستار، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ)، تقديم: راجي الأسمر، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان،١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٤. علم النفس التحليلي(ك . غ يونك)، ترجمة: نهاد خياطة، ط٢، دار الحوار ، اللاذقية ـ سوريا١٩٩٧م.

١٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

١٦. كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي(ت٧٠٧هـ)، دار القلم، بيروت ـ لبنان [د.ت]

١٧. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق:عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

١٨. لسان العرب، ابن منظور(ت٧١١هـ)، ط١، دار صادر، بيروت ـ لبنان. [د.ت].

١٩. اللغة والتطور، د. عبد الرحمن أيوب، مطبعة الكيلاني(منشورات معهد البحوث والدراسات العربية في جامعة الدول العربية)، ١٩٦٩م.

٢٠. محاضرات في اللغة، د.عبد الرحمن أيوب، مطبعة المعارف، بغداد ـ العراق، ١٩٦٦م.

٢١. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، الجزء الثاني: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، الجزء الثالث: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٢. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة ـ مصر،١٣٦٤هـ .

٢٣. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي(ت٦٠٦هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٤. مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني(ت بحدود ٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٢، طليعة النور للطباعة، إيران، ١٣٣٧هـ .

٢٥. موسوعة المورد العربية . دائرة معارف ميسرة مقتبسة من موسوعة المورد . د. رمزي البعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٠م.

٢٦. نسيان com، أحلام مستغانمي، ط١، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٩م.